الفصل الثاني

التناسب بين الآيات

الفصل الثاني

التناسب بين الآيات

ويعد هذا الباب من أوسع الأبواب وأدقها: أما سعته فجاءت من تتبع الإمام لوجه المناسبة بين الآية والآية سواء كانت واضحة جلية أم دقيقة خفية فينص على موقع كل آية من سابقتها، أما دقته فأتت من أن الموقع يتشرب دلالات متعددة تجعل رده إلى أكثر من آية ممكنًا ولا يكون اختصاصه بما قبله أولى من غيره، وهو بهذا يصور ما تحت اللغة من غزارة معانٍ لا يكشف عنها إلا تتبع نبع العلاقات بين مواقع الآيات، والكشف عن الروابط المعنوية المنظمة لمنازل الآيات ووجه انتساب بعضها إلى بعض.

وهذا لا يعني تجاهله للروابط اللفظية، وإنما يشير إليها كثيرًا من خلال اعتبار الضمائر والتكرار والعطف وغيرها، لكنه لا يبحث فيما وراء نظم الآيتين من تناسب وتآلف؛ لأن مجيء الروابط اللفظية إيذان باتصال المعنى، وأما المناسبات بحث فيما بين ما تجاور واقترن معنى وإن تصور في اللفظ صورة المنقطع ؛ لذلك لم يشر إلى أحوال الائتلاف بين ما كان ارتباطه باعتبار من الألفاظ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[الطور:١١].

يقول: «فالفاء لاتصال المعنى، وهو الإيذان بأمان أهل الإيمان، وذلك لأنه لما قال: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ لم يبين بأن موقعه بمن، فلما قال: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الطور:٧]. علم المخصوص به وهو المكذب»[(١)].

وكذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[الشورى:٧].فـ «كلمة ذلك للإشارة إلى شيء سبق ذكره .. يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء ... وليس هاهنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[الشورى:٦]. يعنى كما أوحينا إليك أنك لست حفيظًا عليهم ولست وكيلًا عليهم، فكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا لتكون نذيرًا لهم»[(٢)].

وتدخله في تحليل ما وراء الروابط اللفظية من مناسبة لا يظهر إلا فيما خفيت مجانسته لما

(١) "التفسير" ١٠/ ٢٠٣.

(٢) السابق ٩/ ٥٨٠.

قاله في بيانه وجه المناسبة بين قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[المؤمنون:٧٨]. وما قبلها: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾[المؤمنون:٧٦]. يقول فيها: «والسؤال الثالث: العطف لا يحسن إلا مع المجانسة فأي مناسبة بين قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ وبين ما قبلها؟

الجواب: كأنه سبحانه لما بين مبالغة أولئك الكفار في الإعراض عن سماع الأدلة ورؤية العبر والتأمل في الحقائق قال للمؤمنين: وهو الذي أعطاكم هذه الأشياء، ووفقكم عليها، تنبيهًا على أن من لم يستعمل هذه الأعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها ... تنبيهًا على أن حرمان أولئك الكفار ووجدان هؤلاء المؤمنين ليس إلا من الله»[1].

وهذا ضبط محكم لمجال المناسبات وعملها في الكلام؛ لأنها علم يحرز بالعقول وليس سبيل دركه الألفاظ، وبذلك احترز الإمام عن ما وقع فيه المتأخرون من خلط علم المناسبات بالروابط اللفظية كما فعل الزركشي.[2]

والترتيب عنده من أقوى القرائن الدالة على مراد المتكلم، فأسباب النزول من القرائن القاطعة بالدلالة إلا أنها إذا تعارضت مع الترتيب قدم عليها المعنى المفاد من سياق الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[النحل:١٢٦].

فردَّ ما عليه الجمهور: من أنها جاءت في النبي ﷺ لما رأى حمزة وقد مثلوا به فقال: «والله لأمثلن بسبعين منهم». وبني عليه مجاهد والنخعي وابن سيرين معنى وهو أن المقصود منها نهي المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم – فرد ذلك وأجراها في محيط ما قبلها من المعاني في «حمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى، وذلك يطرق الطعن إليه وهو في غاية البعد، بل الأصوب عندي أن يقال: المراد أنه تعالى أمر

(١)" التفسير الكبير " ٨/ ٢٨٩ .

(٢) " البرهان " ١/ ٧٤ .

محمدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة: وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالطريق الأحسن، ثم إن تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم وبالإعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور، ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة، وبالضرب ثانيًا، وبالشتم ثالثًا، ثم إن ذلك المحق إذا شاهد تلك السفاهات، وسمع تلك المشاغبات لابد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل، وتارة بالضرب، فعند هذا أمر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف وترك الزيادة، فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه.

فإن قيل: فهل تقدحون فيما روي أنه ﷺ ترك العزم على المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية ؟ قلنا: لا حاجة إلى القدح في تلك الرواية؛ لأنا نقول: تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية، فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية، إنما الذي ينازع فيه أنه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة؛ لأن ذلك يوجب سوء الترتيب في كلام الله»[1].

فالسبب قيد الدلالة وحال دون انتظام المعنى، فحملها على ما قبلها وما بعدها؛ لتتآخى عناصر النظم وتلتئم أجزاء الكلام.

وردّ الآية على ما قبلها له ضوابط تصحح العطف وتحسنه، وليس الرد كيفما اتفق بل على بصيرة وهدى من المعنى، ويصور ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾[يس:٨].

يقول فيها: «لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ وفيه وجوه: أحدها: أن المراد أنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[الإسراء:٢٩]. ، والثاني: أن الآية نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد، فرآه ساجدًا فأخذ صخرة ورفعها؛ ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه.

(١) "التفسير الكبير" ٧/ ٢٨٨، ٢٨٩.

والثالث: وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء، وفيه مسائل: المسألة الأولى: هل للوجهين الأولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام؟ نقول الوجه الأول: له مناسبة وهي أن قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٧] يدخل فيه أنهم لا يصلون كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]. أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال: لا يصلون ولا يزكون. وأما على الوجه الثاني فمناسبة خفية وهي أنه لما قال: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس:٧]. وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك: بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلًا. والتفسير هو الوجه الثالث»[1].

فالآية يصح عطفها على جملتين من مقاطع الآية السابقة لها، فالعطف على قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٧] يقوي دلالة عدم الإنفاق في سبيل الله، وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس:٧]. يقوي دلالة سبب النزول وهو البرهان المؤيد لصحة نبوته عليه السلام. والأقوى عنده أنها تفصيل وبيان لمضمون الآية السابقة أي القول الذي حق عليهم وهو منع الله إياهم عن الاهتداء.

وتارة يقتفي أثر السياقات السابقة ويحكم العلاقة بينها من خلال اللغة واختيار التراكيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:٤٥] ذكر في وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ﴾ [يس:٣٣]. ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ﴾ [يس:٣٧]. ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس:٤١] وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين، قال: فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فإن من أخبر بوقوع عذاب يتقيه، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطًا، فقال تعالى: إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به، وإذا قيل لهم: اتقوا لا يتقون فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان، ولا مثل

(١) "التفسير الكبير" ٩/ ٢٥٤.

العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط، ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بحرف التمني أي في ظنكم فإن من يخفى عليه وجه البرهان لا يترك طريقة الاحتراز والاحتياط»[1].

فجاءت بالظن بعد سياق مفعم باليقين حيث تتابعت الآيات في عرض الدلالة التي توجب القطع بنزول العذاب بمن كذب وتولى ففي إهلاك ما قبلهم شاهد يوجب اليقين، فلما جاء الظن في هذا السياق أفاد معنى بلادة حسهم وقصور فهمهم ونهاية غفلتهم؛ لأن العاقل إذا عرضت عليه الدلائل فإنه إذا لم يصدقها فلا أقل من أن يحترز عن العذاب ويتقيه.

ودراسة الترتيب بين الآيات عند الإمام أشبه بباب التقديم والتأخير، فكلاهما يعول فيهما على ما وراء أحوال الترتيب، وعلاقات الانتظام من معانٍ وأسرار أوجبها اختيار مواقع الكلام، إلا أن دراسة بلاغة منازل الكلام ومواقعه في الآيات أصعب مراسًا منها في المفردات، فالمفردات ضابطها العناية أما ترتيب المعاني فليس له حد يحصره بل هو باب متسع تفتح فيه الدلالة الدلالة وتتنزل فيه المعاني باعتبار من سوابقها، فتمكن لها المحل مع لطائف تنتج من مداخلتها وإسنادها لتلك الآيات تزيد فيها خصوصيات ومعاني تتمم بها ما قبلها وتحدد شياتها نحو ما ذكره في تقديم الاستعاذة على البسملة يقول: «ومن اللطائف أن قوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ إشارة إلى نفي مالا ينبغي من العقائد والأعمال، وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ينبغي من الاعتقادات والعمليات، فقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لا يصير معلومًا إلا بعد الوقوف على جميع العقائد الحقة والأعمال الصافية، وهذا هو الترتيب الذي يشهد بصحته العقل الصحيح والحق الصريح»[2].

فملاحظة الآيات وحسن تجاورها وائتلاف بعضها مع بعض ينظم عناصر السورة مع تشكيل هيئات لمعانٍ خفية لا ينبه عليها إلا اعتبار سياقات سابقة، كما في تنظيم أسماء الله الحسنى في سورة «الفاتحة» حيث ائتلفت من مجموعها مراحل الإنسان خلقه ومسيرته بين

(١) "التفسير" ٩/ ٢٨٦.

(٢) السابق ١/ ٢٣.

الهدى والضلال وعين الله رقيبة عليه ترحم وتستر وتجازي المحسن بإحسانه والكفور بكفرانه، وقد أحسن الإمام في تصوير ذلك بقوله: «إنه تعالى ذكر في هذه السورة من أسماء نفسه خمسة: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك، والسبب فيه كأنه يقول: خلقتك أولًا فأنا إله، ثم ربيتك بوجوه النعم فأنا رب، ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن، ثم تبت فغفرت لك فأنا رحيم، ثم لابد من إيصال الجزاء إليك فأنا مالك يوم الدين»[1].

ويتجاوز هذا الباب البلاغة ليصل إلى حدِّ الإعجاز حين تنتبه «إلى أن السورة لم تنزل على هذا الترتيب، فكان الأحرى ألا تلتئم، وألا يناسب بعضها بعضًا، وأن تذهب آياتها في الخلاف كل مذهب، ولكنها روح من أمر الله تفرق معجزًا فلما اجتمع اجتمع له إعجاز آخر»[2].

فكل آية تتخذ موقعًا من عناصر الكلام السابق وتداخلها في بيانها وتنتسب إليها لذلك كان تفسيرها بمعزل عن جاراتها تفسير لظاهرها وقطع الأواصر ما بين الآيات، مما يحول دون تجلية عمق الدلالة ؛ فباطن الآيات موكل بمنطق ما قبلها.

لذلك نجد الرازي يلوح بالظاهر ولا يعلق تمام الدلالة به وإنما ينفذ منه إلى تتبع أصداء الكلام السابق فيها ومواقع دلالته من دلالتها . وبهذا تبنى السورة بناء تدريجيًّا وتتشكل من أحوال دلالية متعددة تترتب وتنتقل دلالته فيها من الإجمال إلى التفصيل ومن الخفاء إلى التفسير، وينسل المعنى من مقابله أو ما هو سبب عنه.

فالترتيب داخل السورة يتخذ أشكالًا متعددة من العلاقات وقد حاولت ضبط ما يتسنى لي ضبطه من وجوه وتصنيفها من خلال نصوص الرازي فوجدتها سبعة أنواع هي كالتالي:

---

(١) " التفسير " ١/٢٠٨ .

(٢)" إعجاز القرآن " الرافعي ص٢٤٤ .

أولًا: المقابلة:

وهي وإن كانت نوعًا مألوفًا في الإبانة إلا أنها في باب المناسبات تخفى وتدق فتجد الآية تطوي في بنائها معنى مخالفًا لما قبلها، لذلك حسنت مجاورتها له وسيقت في سياقه، فاللفظ يأتي ظاهره مستقلًا بحكم فإذا عطف على سابقه كان في حكم المقابل لدلالته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٣]. وموقعها من قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[البقرة:١١]. فالثانية ظاهرها الأمر بالإيمان ولكن لما نهاهم في الآية المتقدمة عن الفساد في الأرض دل على أن كمال حال الإنسان لا يحصل إلا بمجموع الأمرين أولهما: ترك ما لا ينبغي ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾وفعل ما ينبغي ﴿ءَامِنُوا﴾[(١)].

وقد صرح بأن الترتيب باعتبار الضد يفيد تنبيهات وتتميمات للمعاني، وذلك حينما فسر قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾[البقرة:١٦٥]. يقول: «اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد؛ لأن تقبيح ضد الشيء مما يؤكد حسن الشيء، ولذلك قال الشاعر: وبضدها تتبين الأشياء .... فلهذا السبب أردف الله تعالى الآية الدالة على التوحيد بهذه الآية»[(٢)].

فمعنى التقبيح تولد من ترتيبها على إثبات صحة العقول لمن تفكر في الدلائل فاهتدى للوحدانية، فكأن من اتخذ أندادًا من دون الله هو خارج دائرة أصحاب العقول.

والإمام يجعل جذر دلالة الآية متفرعًا عن آيات التوحيد في قوله:﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

(١) "التفسير" ١/ ٣٠٧ بتصرف.

(٢) السابق ٢/ ١٧٢.

دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤]. ولم يردها إلى آية مماثلة لها أي سياق تقبيح مسلك الذين كفروا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة:١٦١]. وإنما رتبها على الضدية لسياق آيات التوحيد؛ لأن ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قررت التوحيد وأكدته بالدلائل القاهرة، فلما جاء قوله: ﴿ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ [البقرة:١٦٤]. شقت مجرى للتقبيح من مسلك فئة تصر على العدول والإغضاء عن الحق وتسلك سبل العماية في اتخاذ غير الله إلهًا، فجاء قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ليريك المناقضة بين إحسان المنعم المتفضل عليهم بأن سخر لهم ما في السماوات والأرض وفعل الإنسان تجاه هذا التسخير بأن اتخذ من دون الله أندادًا.

ونبه إلى نوع من المقابلة لطيف المسلك دقيق المأخذ تخطئه أبصار العارفين من الذين راضوا الكلام ورازوا أسراره، وما ذاك إلا من دقة مدخلها واختلاف نمطها، ولكن هذا الاختلاف يئول بك إلى ائتلاف إذا فتشت لغته وجدت تحته تناسبًا حسنًا، نحو قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٢٨]. فقد فسرها الزمخشري ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ لمن يحشر من الثقلين وغيرهم "[1]. وغاب عنه مدخل المقابلة في بناء الآية بينما وجه الإمام دلالة الآية باعتبار ما قبلها ولم يجعلها منقطعة عنها فقوله: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٧]. بيان لحال من يتمسك بالصراط المستقيم وإتمام النعمة عليهم يوم القيامة بأن يدخلوا في ولاية الله، ثم أردف هذا المعنى بـ «حال من يكون بالضد؛ من ذلك لتكون قصة أهل الجنة مردفة بقصة أهل النار، وليكون الوعيد مذكورًا بعد الوعد»[2]. وقال

(١) "الكشاف" ٢/ ٦٤.

(٢) "التفسير" ٥/ ١٤٧.

فيها أيضًا: «أنه تعالى لما بين في أهل الجنة أن لهم دار السلام، بين أنه تعالى وليهم بمعنى الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة، فكذلك لما بين حال أهل النار ذكر أن مقرهم ومثواهم النار، ثم بين أن أولياءهم من يشبههم في الظلم والخزي والنكال وهذه مناسبة حسنة لطيفة»[1] .

فالزمخشري جعل الآية من قبيل تعميم الحكم السابق بعد أن كان للإنس جاء عامًّا للثقلين، أما الرازي فيمطل دلالتها بإجرائها على معنى المقابلة ويندس في زواياها؛ ليكشف عن أصداء المعنى السابق ونظائره الضدية في أبنية لغتها.

وهو يتتبع هذا المسلك في بناء المعاني المتقابلة؛ ليدل على تشابه معانيها ويضع المعنى حذو المعنى فيرجع أصداءه ويعيده إلى الذهن فينعطف الكلام بعضه على بعض وينسقه نسق الجملة من الجملة، فتأمل قوله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[الحج:١٤]: «اعلم أنه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عباده المنافقين وحال معبودهم، بين في هذه الآية صفة عباده المؤمنين وصفة معبودهم»[2].

فتجد الآية في سياقها البعيد استحضرها الترتيب وأعادها الاختلاف، فبيان صفة عباده المؤمنين واقترانها بوصف معبودهم بعد ذكر المنافقين ووصف معبودهم أحال تشابه البناء وتطابق حذو الكلام إلى إجرائها في نسق ما قبلها وإسنادها إليها ونبه على افتقارها إلى بيانها.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور:٣٩].

يقول: «اعلم أنه سبحانه لما بين حال المؤمن، وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون

(١) السابق، ٥/ ١٥٠ .

(٢) "التفسير" ٨/ ٢١٠ .

متمسكًا بالعمل الصالح، ثم بين أنه في الآخرة فائز بالنعيم المقيم والثواب العظيم، أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات»[1].

وهنا نظّم عناصرها باعتبار ما قبلها من آيات فجعل قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ بيانًا مقابلًا لذكر حال المؤمنين في الآخرة وفوزهم بالنعيم المقيم، ولما ذكر في الآيات السابقة وصف حالهم في الدنيا رتب قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ ﴾النور:٤٠].وجعلها معنى منجرًّا عنه، وعليه تكون بيانًا لحال الكافر في الدنيا، وبذلك تكتمل صورة المعنى المقابل ويستوفي أجزاءه بملاحظة عناصر الآيات المتقدمة وحمل اللاحقة عليها.

ثانيًا: تكميل المعاني:

هو باب من أبواب تفريع الكلام ومطل المعاني يتطلب رهافة حس لإدراك صلات المعاني فيه لردّ الآية إلى جذرها ومناطها؛لأن الآية تتأخر وتسبقها آيات ثم ترتد دلالتها إلى معنى متقدم تتمه وتضيف إليه، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾الحج:٣٨]. جاءت في سياق ما يلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، ولم يرد الرازي دلالتها إلى ذلك وإنما عداها إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾الحج:٢٥]. يقول في ذلك: «اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة وقد ذكرنا من قبل أن الكفار صدوهم أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصدّ ويؤمن معه التمكن من الحج فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾»[2].

وتأمل كيف نبذ الإمام بوجه انتظام النظم والتئامه بجملة واحدة علق الآية بأصلها في قوله: «أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد» ونبه فيها إلى فائدة تنزيل الآية وتأخيرها بعد آيات

---

(١) «التفسير» ٨/ ٣٩٩.

(٢) "التفسير" ٨/ ٢٢٨.

الأذان بالحج في قوله: «ويؤمن معه التمكن من الحج» وكان تأخيرها لموجب وهو جمع السياقات السابقة في سلك واحد وهو تعظيم المسجد الحرام، وعظيم منزلة السالكين إليه حتى جعلهم في معية الله وحفظه يدافع عنهم ويغلب من غالبهم.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾[النساء:١٢٦]. جاءت في سياق الوعد والوعيد وترتبت عليه؛ لأن تمام الوعد والوعيد يحصل ويكمل بإثبات الألوهية فـ «لا يمكن الوفاء بهما إلا عند حصول أمرين: أحدهما: القدرة التامة المتعلقة بجميع الكائنات والممكنات . والثاني: العلم التام المتعلق بجميع الجزئيات والكليات حتى لا يشتبه عليه المطيع والعاصي والمحسن والمسيء . فدل على كمال قدرته بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وعلى كمال علمه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾»[1].

وتارة يكون المعنى قسيمًا لما قبله كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[يونس:٤٢]. فهو داخل في حيز قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٤٠]. فهذه ذكرت مواقف الناس من أمر القرآن فهما صنفان: طائفة مؤمنة به وطائفة كافرة به، ثم جاءت الآيات بعدها لبيان القسم الثاني وتفريعه فـ «قسم من لا يؤمن به إلى قسمين: منهم من يكون في غاية البغض له والعداوة له، ونهاية النفرة عن قبول دينه، ومنهم من لا يكون كذلك»[2].

فعناية الرازي بما وراء تجاور الآيات هدته إلى القسمة الخفية بين المعاني، بينما أجراها من قبله على ظاهرها دون ردها إلى معنى «ومنهم من لا يؤمن به»[3].

وكذلك حمله الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾[يس:٢٣] على معنى

(١) "التفسير" ٤/ ٢٣٢ .

(٢) "التفسير" ٦/ ٢٥٧ .

(٣) "الكشاف" ٢/ ٣٤٩ .

الآية السابقة لها والخروج به من دائرية التأكيد إلى التكميل يقول فيه: «ثم قال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾؛ ليتم التوحيد، فإن التوحيد بين التعطيل والإشراك، فقال: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ﴾إشارة إلى وجود الإله، وقال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله»[1].

وهذا فقه محكم للمعنى يتجاوز روابط اللغة إلى عمق الدلالة فتستبين عندها صلات المعاني ومنازل بعضها من بعض، ومسار كل آية في محيط ما قبلها، وبهذا الفهم تحصل للكلام هيئة واحدة، وبنية متفقة تتعانق فيها أجزاء الكلام، فلا تفسر فيه كلمة بمعزل عن سابقتها، بل كل جملة تؤسس لمعنى في بيان ما بعدها .

وأحيانًا تتابع الآيات لمعنى واحد في الظاهر لكن الإمام يجعل كل آية طريقًا آخر في بيان المعنى يستقصي كل منها جهة من جهاته يتمم دلالته، مثل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[التوبة:٣٩]. اكتمل عندها معنى الترغيب في الجهاد بناء على ما أعدلهم من ثواب الآخرة، وابتغاء منافع الدنيا، ثم جاء قوله: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة:٤٠]. وهي «طريق آخر في ترغيبهم في الجهاد، وذلك لأنه تعالى ذكر في الآية الأولى أنهم إن لم ينفروا باستنفاره، ولم يشتغلوا بنصرته فإن الله ينصره بدليل أن الله نصره وقواه حال لم يكن معه إلا رجل واحد، فههنا أولى»[2]. فهي من باب ضرب الأمثال وإثبات المعنى بدليله، ثم ذكر طريقًا آخر فقال: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

(١) " التفسير " ٩/ ٢٦٥ .

(٢) " التفسير " ٦/ ٤٩ .

تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٤١]. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما توعد من لا ينفر مع الرسول وضرب له الأمثال ما وصفنا، أتبعه بهذا الأمر الجزم»[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[العنكبوت:٨] حددت قسمات ما بعدها وأحدثت في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[العنكبوت:٩] شيات وخصوصيات نزعت بألفاظها و خرجت بها عن الإعادة إلى الإبانة والتنوع، فعندما جاءت في سياق قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[العنكبوت:٣] كانت بيانًا لحال أقسام المكلفين المهتدي والضال، فلما تم الكلام استأنف قسمين آخرين وطأ لهما بمقدمة وهي قوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ وهذا يقتضي أن يهتدى بهما، وقوله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ ﴾ بيان إضلالهما . وقوله: ﴿ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم ﴾ بطريق الإجمال تهديد المضل، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ على سبيل التفصيل وعد الهادي فذكر ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ مرة لبيان حال المهتدي ومرة أخرى لبيان حال الهادي، والذي يدل عليه هو أنه قال: ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٧]. وقال ثانيًا: ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٩]. والصالحون هم الهداة؛ لأنه مرتبة الأنبياء، ولهذا قال كثير من الأنبياء: ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١]»[٢].

وأيضًا قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[النساء:٤١] فظاهرها الإخبار بشهادة الرسل، ولكن تعليقها بما قبلها يحيل على معانٍ تتمم جميع جهات المعنى السابق فـ «وجه النظم هو أنه تعالى بين أن في الآخرة لا يجري على أحد ظلم، وأنه تعالى يجازي المحسن بإحسانه، ويزيده على قدر حقه، فبين تعالى في هذه الآية أن ذلك يجري بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق؛ لتكون الحجة على المسيء أبلغ، والتبكيت له أعظم وحسرته أشد، ويكون سرور من قَبِل ذلك من الرسول

(١) السابق ٦/ ٥٥.

(٢) "التفسير الكبير" الرازي ٩/ ٣٢ بتصرف.

وأظهر الطاعة أعظم، ويكون هذا وعيدًا للكفار الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء :٤٠]. ووعدًا للمطيعين الذين قال فيهم: ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ »[1].

وكذلك حمل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر:٣٩] على معنى التقرير لقطع حجة الذين كفروا، فإنهم لما قالوا حين رأوا العذاب: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[فاطر:٣٧] فرد دعواهم بتذكير ما كان عليه حالهم مع الدلائل والبراهين التي صادفوها فأعرضوا عنها وعموا وصموا، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ ﴾ إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾أي آتيناكم عقولًا، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول - زاد على هذا بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فإنكم لولم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الأرض، أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿ فَمَن كَفَرَ ﴾ [فاطر:٣٩]. بعد هذا كله ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾»[2].

فمجيء التقرير بعد الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾فيه تصعيد للحجة وتقوية لها بما لا نهاية بعده، فكان قطعًا وإلجامًا لكل محتج .

ثالثًا: زيادة بيان:

ويعول في هذا الباب على ما يثار في نفس المخاطب حول المعنى فتارة تعرض له شبهة وتارة تساؤل وأخرى غموض ينكشف بالتصريح، وإبانة المعنى عن المعنى لا تفهم من ظاهر اللفظ وإنما يؤسس لها حسن تجاور الكلام، ويتأتى إليها بحسن البيان فيداخل المعاني بعضها

---

(١) "التفسير" ٤/ ٨٣ .

(٢) " التفسير " ٩/ ٢٤٤ .

في بعض فيفتح بذلك الدلالة ويزيل إبهامها، نحو موقع قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:٩٥] من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء:٩٤]. فـ "لما عاتبهم الله تعالى على ما صدر منهم من قتل من تكلم بكلمة الشهادة، فلعله يقع في قلبهم أن الأولى الاحتراز عن الجهاد؛ لئلا يقع بسببه في مثل هذا المحذور، فلا جرم ذكر الله تعالى في عقيبه هذه الآية وبين فيها فضل المجاهد على غيره إزالة لهذه الشبهة»[(١)].

وقد نبه الإمام إلى أن هذا النوع من التحليل هو مسلك السلف في فهم بيان معاني القرآن، وأن الآية لا تفسر بمعزل عن ما جاورها من عناصر ومكونات، فالإمام علي حينما سأله المشركون عن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾[التوبة:٥]فقالوا: «إن أردنا أن نأتي الرسول بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟ فقال علي: لا، إن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾[التوبة:٦] أي فأمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦] [(٢)] فالأولى يقتضي أنه إن جاء أحد من المشركين وطلب الدليل لا يلتفت إليه فلما كان هذا الكلام واقعًا في القلب لا جرم ذكر هذه الآية إزالة لهذه الشبهة»[(٣)].

أو يكون تساؤلًا هامسًا لا يصل إلى الوهم والشك كما في النوع الأول فتتولد عنه آيات تشبع حاجة في نفس المخاطب وتزيل ما يعتري البيان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي

(١) "التفسير" ٤/ ١٩٢.

(٢) السابق ٥/ ٥٢٩.

(٣) السابق نفسه، وينظر هذا النوع في: ٢/ ٢٩٣، ٣/ ٨٢، ٩/ ٢١٦، ٨/ ١٢١.

﴿ ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٩] جاءت في سياق إيجاب القصاص و «لما كان القصاص من باب الإيلام توجه فيه سؤال وهو أن يقال: كيف يليق بكمال رحمته إيلام العبد الضعيف؟ فلأجل دفع هذا السؤال ذكر عقيبه القصاص فقال: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾»[1].

وتارة تجيء الآية للتصريح بمعنى جرى فيما قبلها، وغالبًا ما يكون موضع عناية فتتوافر الآيات عليه لإبرازه وتمكينه كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[التوبة:١٠٤] قال فيها: «واعلم أنه تعالى لما حكى عن القوم الذين تقدم ذكرهم أنهم تابوا عن ذنوبهم وأنهم تصدقوا وهناك لم يذكر إلا قوله: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾[التوبة:١٠٢] وما كان ذلك صريحًا في قبول التوبة ذكر في هذه الآية أنه يقبل التوبة وأنه يأخذ الصدقات والمقصود ترغيب من لم يتب في التوبة وترغيب كل العصاة في الطاعة»[2].

فقوله: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ في سياق مفعم بالغضب والنقمة عليهم؛ لتخلفهم عن نصرة رسوله شاب الدلالة بالظن في قبول توبتهم فجاء التصريح؛ لتجلية الدلالة وزيادة بيان.

وأحيانًا تقع الآيات تصريحًا لمعانٍ كلية، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[يونس:٢٢، ٢٣]. لأنه «لما قال: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ

(١) "التفسير" ٢/ ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) "التفسير" ٦/ ١٣٩.

رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ يونس:٢١ كان هذا الكلام كليًّا لا ينكشف معناه إلا بذكر مثال كامل، فذكر الله تعالى لنقل الإنسان من الضر الشديد إلى الرحمة مثالًا، ولمكر الإنسان مثالًا، حتى تكون هذه الآية كالمفسرة للآية التي قبلها، وذلك لأن المعنى الكلي لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي»[1].

رابعًا: التفصيل:

وهو منهج بياني في بناء معاني القرآن، يكاد يكون نمطًا مطردًا في بناء بلاغته، وخصوصية من خصوصيات بيانه، فقد بين تعالى أنه يفصل الآيات، ومعنى تفصيلها أي تتابعها واحد عقيب الآخر فصلًا بعد فصل لشرح معانيها، وجميع ما ذكرناه من العلاقات داخل في معنى التفصيل؛ لأن إيرادها لأجل الإبانة والشرح لما قبلها، ولكن ما نقصده بالتفصيل هنا هو ما كانت فيه الآية شرحًا لزاوية مجملة في الآية السابقة، فتأتي التالية لتمطل دلالتها وتمتد ببيانها كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢] فـ «لما ذكر الوعد في الآية الأولى على سبيل الإجمال ذكره في هذه الآية على سبيل التفصيل وذلك لأنه تعالى وعد بالرحمة، ثم بين في هذه الآية أن تلك الرحمة هي هذه الأشياء»[2].

أي أن قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾هو الزاوية المجملة في بيان هذه الآية فتتابع ما بعدها لإشباع دلالتها وتفصيل مجملها.

---

(١) "التفسير" ٦/ ٢٣٢.

(٢) "التفسير" ٦/ ١٠١.

وكذلك موقع قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[الأنعام: ١١١] من قوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: ١٠٩]. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى بين في هذه الآية تفصيل ما ذكره على سبيل الإجمال بقوله: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فبين أنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من إنزال الملائكة وإحياء الموتى حتى كلموهم بل لو زاد في ذلك مالا يبلغه اقتراحهم بأن يحشر كل شيء عليهم قبلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله»[1].

وأيضًا مقطع الوعيد في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[الإسراء:٩٧،٩٨] هو تقريع وامتداد للإيحاء به في قوله: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[الإسراء: ٩٦] يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات القوم في إنكار النبوة وأردفها بالوعيد الإجمالي وهو قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل»[2].

ومسلك آخر تأتي المعاني المفصلة ثم تردف بمعنى إجمالي يستوعب ما سبق، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[فاطر: ٣]. يقول: «لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمة على سبيل الإجمال فقال: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين: نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء،

(١) "التفسير" الرازي ٥/ ١١٧.

(٢) السابق ٧/ ٤١١.

فقال تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ إشارة إلى نعمةالإيجاد في الابتداء، وقال تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء»[1].

خامسًا: العموم والخصوص:

نوع آخر من التناسب تمتزج فيه الآية مع ما قبلها بأن تكون تعميمًا لحكمها أو تخصيصًا وهو مسلك أيضًا في تفريع المعاني وتوسيع دلالتها والإحاطة بجهاتها لا غنى للمفسر من تتبعه في بيان المتكلم، وحمل تلك الفروع وردها إلى محل الحكم وتأليفها باعتبار منه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

[الجاثية: ٢٧].

فـ «لما احتج بكونه قادرًا على الإحياء في المرة الأولى، وعلى كونه قادرًا على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة، عمم الدليل، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾أي لله القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السماوات أو من الأرض»[2].

فالآيات المتقدمة استدلت على قدرة الله بجزء من الممكنات وهي القدرة على الخلق والقدرة على البعث فجاء قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾تعميمًا لمحل الاستدلال؛ ليحيط بجميع الممكنات ولتصور القدرة المهيمنة المالكة للأمر كله.

وفي سورة «لقمان» جاء قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[لقمان: ٢٩] منعطفًا على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾[لقمان: ٢٠] وتفريعًا عليها بالتخصيص، قال فيها: «إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾على وجه العموم ذكر منها بعض

(١) "التفسير" ٩/ ٢٢٢، وينظر: ٥/ ١٨٥ .

(٢) "التفسير" ٩/ ٦٨، وينظر: ٤/ ١٠٥ .

ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ ﴾إشارة إلى ما في السموات وقوله بعد هذا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[لقمان: ٣١] إشارة إلى ما في الأرض»[1].

سادسًا: التأكيد:

وهو من الأنواع الخفية في بسط المعاني وإبرازها، فالمعنى لا يعود بهيئته وإنما تجد له إيماضة تحت لغة الآية التالية تنعطف بأعنة العقل إلى الأصل الذي تفرعت عنه، مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[الحج: ٧٠]جاءت تأكيدًا لما قبلها : ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[سبا: ٦٩] لـ «يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم، فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور»[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[الحج: ٤٧] «لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة بأن يدعي شخص النبوة ويظهر الله المعجزة فهي بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول»[3].

ويستدل في آيات أخرى على مواقع التوكيد بوجود عناصر ترجّع وتردد نظائرها فتوجه إلى سياقات سابقة، كما في قوله تعالى: ﴿ لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[الأنفال: ٤٤] بعد أن داخلت قوله: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنفال: ٤٢]. وليس

(١) "التفسير" ٩/ ١٢٩، وينظر أيضًا: ٦/ ١٥٧، و٨/ ٢٤٣.

(٢) "التفسير" ٩/ ٢١٥.

(٣) "التفسير" ٨/ ٢٤٩ – ٢٥٠.

في ذلك تكرار لاختلاف المقصد فالمتقدمة جرت في سياق المؤمنين فكان الغرض منها أنه فعل تلك الأفعال؛ ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ، وفي هذه الآية المعنى أنه قلل عدد المؤمنين في أعين المشركين؛ ليصير ذلك سببًا للتخلي عن الحذر والاستعداد فيكون سببًا لانكسارهم.[1]

فلما اختلف السياق وتباعد أعاد الجملة؛ لتجاذب ما اختلف وترده إلى المغزى من تفريعه، فرجعت معنى الوعد بإظهار المؤمنين واستيلائهم على المشركين وأكدته بتتميم جهاته وكشفت عن تدابيره لتمكينه لهم في أنفسهم ومع أعدائهم.

وأحيانًا ترد إلى آيات أبعد لتستحضرها وتؤكدها، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[يونس: ٦٧] فلم يرد دلالتها إلى ما قبلها وهو ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[يونس: ٦٦] فلما كانت هذه الآية داخلة في حيز معنى أصل وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[يونس: ٦٥] عطفها على جذر الكلام وجعلها فرعًا عنه وتابعًا له بقوله: «اعلم أنه تعالى لما ذكر قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ احتج عليه بهذه الآية»[2].

سابعًا: السببية:

وهي من العلاقات التي تحكم ربط الجملة بالجملة ويصير بها الكلام شيئًا واحدًا، وأحيانًا تكون ظاهرة كما في قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[البقرة: ٧]. فهي بمنزلة السبب لقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[البقرة: ٦] لأن ما قبلها بيان أن المشركين لا يؤمنون سواء عليهم أأنذرت أم لم تنذر «أخبر في هذه الآية بالسبب الذي لأجله لم يؤمنوا، وهو الختم»[3].

---

(١)"التفسير" ٥/ ٤٨٨.

(٢) "التفسير" ٦/ ٢٨٠.

(٣) "التفسير" ١/ ٢٩١.

ومنها ما يكون خفيًا يتطلب لطفًا في رده سببًا لما قبله، كما في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[البقرة:٢١٢] ومكانها من قوله: ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة:٢١١] يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل حال من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته وهم الكفار الذين كذبوا بالدلالة والأنبياء وعدلوا عنها أتبعه الله تعالى بذكر السبب الذي لأجله كانت هذه طريقتهم، فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾.ومحصول هذا الكلام تعريف المؤمنين ضعف عقول الكفار والمشركين في ترجيح الفاني من زينة الدنيا على الباقي من درجات الآخرة»[1] .

وقد جعلها الزمخشري مقطعًا جديدًا فيه إخبار عن تزيين الشيطان بوساوسه وكيف حببها إليهم حتى لا يريدوا غيرها[2] بينما رتبها الرازي على تبديل الآيات وانتهاجهم نهج الضلالة وإنكار البينات؛ لاستحواذ الدنيا عليهم فاطمأنوا بها. فكانت تنبيهًا على السبب الذي تولدت منه وزادت هي تحذير المؤمنين من طريقتهم وأنه سينالهم من العذاب ما حل بالمشركين أن بدلوا الآيات بعد أن ظهرت براهينها.

وأحسبه بهذا التوجيه جعل الآية تحقيقًا لترك الإضمار الذي قال به عبد القاهر في فاصلة الآية السابقة: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[البقرة:٢١١]حيث ذكر أن عبد القاهر قال: «إن ترك الإضمار فيها أولى فلا يقال: شديد العقاب له . «وذلك لأن المقصود من الآية التخويف بكونه في ذاته موصوفًا بأنه شديد العقاب، من غير التفات إلى كونه شديد العقاب لهذا أو ذاك»[3] .

---

(١) " التفسير " ٢/ ٣٦٧ .

(٢) " الكشاف " ١/ ٢٥٤ .

(٣) " التفسير " ٢/ ٣٦٧ .

وأيضًا قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء:٥٣]. فهذه الآية في وصف اليهود بالبخل والحسد، بعد وصفهم بالجهل، والعلاقة بين الوصفين «أن السبب الأصلي للبخل والحسد هو الجهل، فلما ذكر تعالى الجهل أردفه بذكر البخل والحسد؛ ليكون المسبب مذكورًا عقيب السبب»[1].

فالرازي يتغلغل في ترتيب المعاني بعضها على بعض والسبب في أن قدمت الآية على الآية وهداه ذلك إلى بيان المناسبة بين الصفتين وأن ثانيتهما مسببة عن الأولى، وهذا زائد على ما ذكره علماء التفسير قبله على أنه وصف لليهود بشر خصلتين»[2].

والرازي لم يتخذ من دراسة الترتيب بين الآيات أداة للكشف عن ما أشكل تعلقه فحسب وإنما اختطه منهجًا سار عليه في دراسته لجميع الآيات، فكان وقوفه عندما كان تعلقه بغيره ظاهرًا كوقوفه لما خفيت فيه وجه المناسبة، فكأن علم المناسبة بين الآيات كشف عن نسق الكلام وإحكام لمعاقد معانيه، وتجاهل هذا اللون من التحليل إهدار لثراء الدلالة وتغييب لوجه من و جوه حسن الكلام، فهو أحد علوم الإبانة التي بإصابتها يحسن الكلام، ويتبين مراد المتكلم ومقاصده .

والترتيب داخل السورة يراعى فيه خصوصيات وأحوال كما هو الحال في الجملة توضع فيها الكلمة لاعتبارات من الكلمات المحيطة بها وتكون بلاغتها بمدى التعايش بين الكلمات والتمازج والتفاعل فيما بينها، وكذلك السورة نموها واكتمالها بملاحظة واعتبار التواصل والتشارب بين آياتها، فرد الآية على الآية ينمي المعاني ويزيد فيها ويثير تنبيهات ولطائف تتم معها الدلالة، ومن ذلك ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت:٣٧]. يقول: «اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال

(١) "التفسير" ٤/ ١٠٢ . وينظر في هذا النوع: ٢/ ٣٧٢، ٦/ ٢٧ .

(٢) "الكشاف" ١/ ٥٢١ .

والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته، تنبيهًا على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته، وهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات، فكان العلم بهذه اللطيفة أحسن العلوم »[1].

فظاهر الآية عرض لدلائل وحدانية الله التي هي أصل من الأصول التي عليها مدار معاني القرآن، وهذا ما ذهب إليه المفسرون ذكر ذلك ابن عطية حيث قال فيها «وندب الله تعالى في هذه الآية المتقدمة إلى مكارم الأخلاق بالدفع بالتي هي أحسن، .... ثم عدد الله تعالى آياته؛ ليعتبر من صدف عن التوحيد»[2].

فجعل عرض الدلائل مقطعًا مستقلًا يتضمن تنبيه من صدف أو أعرض عن التوحيد، أما الرازي فيعلقها بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣]. وهذا الترتيب خرج بالكلام عن كونه براهين دالة على التوحيد إلى بيان لأحسن الأقوال في الدعوة إلى الله وهو تقرير الدلائل الدالة على ذات الله . فتشربت أحوال سياق ما قبلها وتولد عن ذلك معانٍ وفوائد زائدة على أصل الكلام .

ويصرح الإمام بأن وضع الآية بجوار الآية يكون لأجل هذه التنبيهات كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٧٠].

يقول: «إنما ذكر تعالى هذه عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان؛ تنبيهًا على أنه لا فرق بين متابعة الشيطان وبين متابعة التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل أو على ما يقوله الغير من غير دليل»[3].

---

(١) " التفسير " ٩/ ٥٦٥، ٥٦٦ .

(٢) " المحرر الوجيز " ١٣/ ١١٦ .

(٣) "التفسير" ٢/ ١٨٩ .

وقد عدل الإمام عن توجيه الزمخشري حيث فسر الآية في مجال ما قبلها فجعل الضمير في لهم عائدًا على الناس، وأنها من قبيل التنبيه على ضلالتهم[1]، وجعلها الإمام مستأنفة والضمير عائد على غير مذكور؛ ليهيئ للمعنى الإضافي المتولد من الترتيب، فكأنها نبهت على خطأ من يظن أن التقليد منهج، وأن المنهجين وإن اختلفت أسماؤهما لا فرق بينهما ؛ لأن كل فكرة أو رأي لا يقترن ببرهان ولا يؤكده دليل خطوة من خطوات الشيطان، وهذا الرأي منسوب لابن عباس حيث قال إنها: «نزلت في اليهود، وذلك حين دعاهم رسول اللهﷺ إلى الإسلام، فقالوا: نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا خيرًا منا، وأعلم منا. فعلى هذا الآية مستأنفة، والكناية في «لهم» تعود إلى غير مذكور، إلا أن الضمير قد يعود على المعلوم كما يعود على المذكور»[2].

وأيضًا ترتيب قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة:١٤١] على ما قبلها «لوجوه: أحدها: ليكون وعظًا لهم وزجرًا حتى لا يتكلوا على فضل الآباء فكل واحد يؤخذ بعمله . وثانيها: أنه تعالى بين أنه متى لا يستنكر أن يكون فرضكم عين فرضهم لاختلاف المصالح لم يستنكر أن تختلف المصالح فينقلكم محمد ﷺ من ملة إلى ملة أخرى. وثالثها: أنه تعالى لما ذكر حسن طريقة الأنبياء الذين ذكرهم في هذه الآية بين أن الدليل لا يتم بذلك بل كل إنسان مسئول عن عمله، ولا عذر له في ترك الحق بأن توهم أنه متمسك بطريقة من تقدم؛ لأنهم أصابوا أم أخطئوا لا ينفع هؤلاء ولا يضرهم لئلا يتوهم أن طريقة الدين التقليد»[3].

والوجه الأول ذكره الطبري[4]، وزاد عليه ابن عطية بالتنبيه على ما تحمله الآية من مضامين مختلفة عن نظيرتها في نفس السورة أحدثها وضع الآية وتأخيرها يقول: «كررها عن

(١) "الكشاف" ١/ ٢١٣ .

(٢) "التفسير" ٢/ ١٨٨ .

(٣) "التفسير" ٢/ ٧٨ .

(٤) "جامع البيان" ١٢/ ٥٧٦ .

قرب؛ لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف: أي: إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى، فوجب التأكيد فلذلك كررها، ولإيراد ذكرهم أيضًا في معنى غير الأول»[1].

فقوله: «في معنى غير الأول» كلمة نافذة فتحت للرازي وجوهًا مختلفة من التأويل حيث تتبع الآيات السابقة وما تحمله من مضامين نزعت بالآية إلى منازع مختلفة من الدلالة.

وهذه الوجوه ليس لها رابط لفظي تئول إليه وإنما سبيلها لطائف مستقاها العقل، وفوائد يحصلها النظر. فالرازي مكن لكل وجه بحسن استيعابه للسابق، وما تحته من أغراض هيأت للإيحاء بهذه المعاني.

وبهذا يتقرر أن العلاقة بين الآيات علاقة تفاعل وتداخل وكما أن رد الآية على ما قبلها يثري الدلالة السابقة وينميها، فكذلك الآية اللاحقة يفتح مدلولها ويسد ثغرات وفجوات في بيانها، كما في تحليله لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨] «المقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة، ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله ﷺ وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم: هلا اختير غيره في النبوة»[2]. فتأويل مكنون صدورهم بعداوتهم للرسول وما يعلنونه من مطاعن وشبهات حول نبوته معنى انتزعه من سياق الآيات.

بل إن تحديد منطوق الآية لا يكون إلا بالنظر فيما جاورها؛ لذلك رد ما عليه أكثر المفسرين من أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم:٤٧] إشارة إلى الحشر، وفسرها بمعنى نفخ الروح؛ لأن الإعادة سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[النجم٤٢] فهي عند الأكثرين لبيان الإعادة، وقوله: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم٤١] كذلك، فيكون ذكر النشأة الأخرى تكرار، فلما جرى ذكرها كانت ﴿النَّشْأَةَ

(١) "المحرر الوجيز" ١/٥٠٩.

(٢) "التفسير" ٩/١١.

﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أمرًا آخر بين دلالته قوله بعدها»: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾[النجم:٤٨]وهو حال من أحوال الدنيا فرشح دلالتها على معنى نفخ الروح وقواها، واتسق الكلام وعليه يكون الترتيب في غاية الحسن، فإنه تعالى يقول: خلق الذكر والأنثى ونفخ فيهما الروح الإنسانية الشريفة ثم أغناهما بلبن الأم ونفقة الأب في صغرهما، ثم أقناهما بالكسب بعد كبرهما[1].

وهذا ظاهر في تفسيره لجميع الآيات لكنه أشد ظهورًا في الآيات التي تأتي بألفاظ واحدة وبيان متفق ثم تراه يفسرها تفسيرًا مختلفًا عن سابقتها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[النساء:١٣١] تكررت في ثلاثة مقاطع وفي كل لها دلالة ويفرع عليها معنى يقول فيها: «إنه تعالى ذكر هذه الآية ثلاث مرات لتقرير ثلاثة أمور، فأولها: أنه تعالى قال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٣٠]. والمراد منه كونه تعالى جوادًا متفضلًا، فذكر عقيبه قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والغرض تقرير كونه واسع الجود والكرم، وثانيها: قال: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ والمراد منه أنه تعالى منزه عن طاعات المطيعين وعن ذنوب المذنبين، فلا يزداد جلاله بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي والسيئات، فذكر عقيبه قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. والغرض منه تقرير كونه غنيًّا لذاته عن الكل. وثالثها: قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾[النساء:١٣٢،١٣٣]. والمراد منه أنه تعالى قادر على الإفناء والإيجاد فإن عصيتموه فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية، ... فالغرض ههنا تقرير كونه سبحانه قادرًا على جميع المقدورات وإذا كان الدليل الواحد دليلًا على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل .... فإذا أعدته ثلاث مرات وفرعت عليه في كل مرة إثبات صفة أخرى من صفات جلال الله تنبه الذهن حينئذ؛ لكون تخليق السماوات والأرض دالًّا على أسرار شريفة ومطالب جليلة»[2].

---

(١)"التفسير" ١٠/ ٢٨١، ٢٨٢ بتصرف.

(٢) "التفسير" ٤/ ٢٣٩، ٢٤٠.

وهنا نجد تصويرًا لغزارة معاني القرآن واتساع أسلوبه وأنه حمال لوجوه، ففي أي وجهة صرفته انصرف وانشق عن دلالة، فتخليق السماوات والأرض مستوعب لصفات الله وكاف في الاستدلال على ألوهيته، ثم خلص الرازي من هذا التكرار الحي النامي إلى ربطه بالمنهج العام للقرآن والغرض الكلي من آياته، وهو صرف الأفهام والعقول إلى الاستغراق في معرفة الله[1].

والترتيب فيما بين الآيات ليس له علاقة محددة ولا يتخذ مسارًا واحدًا وإنما يراعى فيه فقه الدلالة ووجود مناسبة يصح معها عطف الآية على الآية قبلها أو في سياق آخر يستلزم ردها إليه، وقد انتهج الإمام مسالك مختلفة في العطف مما يؤكد أن هناك ضوابط تضبط مجال كل آية وحركتها داخل ما قبلها من آيات، فكل آية تستبطن إيماضات توحي إلى معانٍ ضمنية لسياقات سابقة تتصل بها.

وبهذا تتنوع علاقات الآيات ويختلف تفريعها، فتارة تجده يرتب الآية على ما قبلها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنعام٣٨] يرتبها على قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام:٣٧] لـ «أنه تعالى بين في الآية الأولى أنه لو كان إنزال المعجزات مصلحة لهم لفعلها ولأظهرها إلا أنه لما لم يكن إظهارها مصلحة للمكلفين لاجرم ما أظهرها، وهذا الجواب إنما يتم إذا أثبت أنه تعالى يراعي مصالح المكلفين ويتفضل عليهم بذلك فبين أن الأمر كذلك، وقرره بأن قال: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ ، فإذا كانت آثار عنايته واصلة إلى جميع الحيوانات، فلو كان في إظهار هذه المعجزات القاهرة مصلحة للمكلفين لفعلها ولأظهرها ولامتنع أن يبخل بها مع ما ظهر أنه لم يبخل على شيء من الحيوانات بمصالحها ومنافعها، وذلك يدل على أنه تعالى إنما لم يظهر تلك المعجزات؛ لأن إظهارها يخل بمصالح المكلفين»[2].

---

(١) ينظر السابق ٤/ ٢٤٠

(٢) "التفسير" ٤/ ٥٢٣.

وأحيانًا يعلق الآية على جملتين من جمل الآية السابقة لها وفي كل فائدة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤]. ورتبها على قوله: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة:٢١٣]. يقول في ذلك: «في النظم وجهان: الأول: أنه تعالى قال في الآية السالفة ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ والمراد أنه يهدي من يشاء إلى الحق وطلب الجنة فبين في هذه الآية أن ذلك الطلب لا يتم ولا يكمل إلا باحتمال الشدائد في التكليف، فقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢]. الثاني: أنه في الآية السالفة لما بين أنه هداهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه بين في هذه الآية أنهم بعد ذلك الهداية احتملوا الشدائد في إقامة الحق وصبروا على البلوى، فكذا أنتم يا أصحاب محمد لا تستحقون الفضيلة في الدين إلا بتحمل هذه المحن»[1].

فتنوع المعنى بتنوع ترتيبها على جزئيات الآية السابقة فردها في الوجه الأول إلى فاصلة الآية وهو قوله ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. وفي الثاني إلى الخبر المبهم في قوله ﴿ فَهَدَى اللَّهُ ... ﴾ فجاءت بيانًا وتفصيلًا له.

وفي آيات أخرى يستحضر سياقات بعيدة ويرتب عليها الدلالة، وهذا يتطلب وعيًا بالغًا بمنازل المعاني ومكان بعضها من بعض، ورهافة حس وشرف تأمل مع إحاطة بالأغراض؛ ليمكن للآية في قلب الأخرى، نحو قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف:٣١]. فردها إلى آيتين إلى

(١) "التفسير" ٢/ ٣٧٧، ٣٧٨.

قوله: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[الأعراف:٢٩]. وقوله: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٦] فـ «لما أمر بالقسط في الآية الأولى، وكان من جملة القسط أمر اللباس وأمر المأكول والمشروب، لا جرم أتبعه بذكرهما،و أيضًا لما أمر بإقامة الصلاة في قوله: ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف:٢٩]. وكان ستر العورة شرطًا لصحة الصلاة لا جرم أتبعه بذكر اللباس»[1].

وأيضا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:١٥٨]. علقها بثلاثة سياقات «أحدها: أن الله تعالى بين أنه إنما حول القبلة إلى الكعبة؛ ليتم إنعامه على محمد ﷺ وأمته بإحياء شرائع إبراهيم ودينه على ما قال: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:١٥٠]. وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذكر في قصة بناء الكعبة وسعي هاجر بين الجبلين فلما كان الأمر كذلك ذكر الله تعالى هذا الحكم عقيب تلك الآية .

وثانيها: أنه تعالى لما قال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[البقرة:١٥٥] قال: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ وإنما جعلها كذلك؛ لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى واستدلوا بذلك على أن من صبر على البلوى لابد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى المقامات.

وثالثها: أن أقسام تكليف الله تعالى ثلاثة، أحدها: ما يحكم العقل بحسنه في أول الأمر فذكر هذا القسم أولًا وهو قوله: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢]. فإن كل عاقل يعلم أن ذكر المنعم بالمدح والثناء والمواظبة على شكره أمر

(١) "التفسير". ٥/ ٢٢٨.

مستحسن في العقول . وثانيها: ما يحكم العقل بقبحه في أول الأمر إلا أنه بسبب ورود الشرع به يسلم حسنه، وذلك مثل إنزال الآلام والفقر والمحن، فإن ذلك كالمستقبح في العقول؛ لأن الله تعالى لا ينتفع به ويتألم العبد منه، فكان ذلك كالمستقبح، إلا أن الشرع لما ورد به وبين الحكمة فيه، وهي الابتلاء والامتحان على ما قال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ فحينئذ يعتقد المسلم حسنه ... وثالثها: الأمر الذي لا يهتدي لا إلى حسنه ولا إلى قبحه، بل يراه كالعبث الخالي عن المنفعة وهو مثل أفعال الحج من السعي بين الصفا والمروة، فذكر الله تعالى هذا القسم عقيب القسمين الأولين، ليكون قد نبه على جميع أقسام تكاليفه وذاكرًا لكلها على سبيل الاستيفاء والاستقصاء» [1].

فتأمل كيف كيف مكن للآية وجعلها صلة لجميع ما سبق،وكأن المعاني السابقة تصب في دلالتها، فإذا وضعتها في الإنعام السابق كانت من تمامه، وإذا استبصرت بها دلائل بشرى الصابرين بصرتك واستدللت بها على منزلتهم ووصولهم إلى أعلى الدرجات وخلود ذكرهم على مر الأزمان وتعاقب العصور فكانت كشاهد عيان للكلام السابق، وإذا أجريتها في سياق التكاليف كانت قسيمًا مكملًا للنوعين السابقين .

وذكر الألوسي وجهًا واحدًا من كلام الإمام وهو أن الصبر اقتضى بيان معالم الحج للحاجة إليه في قضاء مناسكه، واستقل برأي وهو أنه: «لما أشار سبحانه فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالم الحج فكأنه جمع بين الحج والغزو، وفيهما شق الأنفس وتلف المال»[2].

أي أنه يردها إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[البقرة:١٥٤]. ولكن يعرض له إشكال وهو أن الآية ليست في باب الحث على الجهاد وذكر فضيلته وإنما جاءت تفصيلًا لقوله :﴿ ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ ﴾[البقرة:١٥٣]. وبيانًا له. وقد تجاوز الإمام الرازي هذا بجعلها في حيز الصبر وهو رأس المعنى الذي تولد عنه ذكر فضيلة الجهاد والحج .

---

(١) "التفسير" ٢/ ١٣٤،١٣٥ .

(٢) "روح المعاني" ٢/ ٢٤،٢٥ .

وأحيانًا يعلق الآية بآية هي جذر لما بعدها من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] يرتبها على قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:٥٩] يقول في ذلك: «اعلم أنه تعالى لما أمر بطاعة الله وطاعة الرسول بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ ثم زيف طريقة الذين تحاكموا إلى الطاغوت وصدوا عن الرسول، ثم أعاد الأمر بطاعة الرسول مرة أخرى فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ثم رغب في تلك الطاعة بقوله: ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء:٦٦-٦٨]. أكد الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول في هذه الآية مرة أحرى ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء:٦٩].

وانظر إلى دقة الرازي في توجيه الآية وتعليقها برأس الكلام وأنف الغرض مع أنها من باب الترغيب فلم يدخلها في حيز ما قبلها أي في قوله: ﴿ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لأن هذا الترغيب خاص بفئة معينة وسياق محدود وهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:٦٠]. وتتابعت الآيات للرد على هذه الفئة وترغيبهم في الطاعة، فإذا أجراها على ما قبلها خصصت فردها إلى جذر الكلام ليعمم الترغيب ويؤكد الأمر بالطاعة.

وأيضا قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران:١٧٩]. يقول فيها: «اعلم أن هذه الآية من بقية الكلام في قصة أحد، فأخبر تعالى أن الأحوال التي وقعت في تلك الحادثة من القتل والهزيمة، ثم دعاء النبي ﷺ إياهم مع ما كان بهم من الجراحات إلى الخروج لطلب العدو، ثم

دعاؤه إياهم مرة أخرى إلى بدر الصغرى لموعد أبي سفيان، فأخبر تعالى أن كل هذه الأحوال صار دليلًا على امتياز المؤمن من المنافق؛ لأن المنافقين خافوا ورجعوا وشمتوا بكثرة القتلى منكم، ثم ثبطوا وزهدوا المؤمنين عن العود إلى الجهاد، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يجوز في حكمته أن يذركم على ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين بكم وإظهارهم أنهم منكم ومن أهل الإيمان بل كان يجب في حكمته إلقاء هذه الحوادث والوقائع حتى يحصل هذا الامتياز، فهذا وجه النظم» [1].

فالآية وإن كانت متصلة بالكلام في قصة أحد إلا أن تأخيرها ووضعها بعد سياق ذكر المنافقين وتثبيطهم للمؤمنين عن الجهاد؛ لتبين أن هذا النوع من الابتلاء لامتياز المؤمنين من المنافقين.

وأيضا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٩] يردها إلى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[آل عمران:١١٨]. يقول: «واعلم أن هذا من تمام الكلام الأول وذلك لأن الكفار لما أرجفوا أن النبي ﷺ قد قتل ودعا المنافقون بعض ضعفة المسلمين إلى الكفر،منع الله المسلمين بهذه الآية عن الالتفات إلى كلام أولئك المنافقين» [2].

وقد أفاد هذا من ابن عطية حيث جعل «الإشارة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى المنافقين الذين جبنوا المسلمين وقالوا في أمر أحد: لو كان محمد نبيًا لم يهزم، والذين قالوا: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول» [3]

(١) "التفسير" ٣/ ٤٤١

(٢) "التفسير" ٣/ ٣٨٣.

(٣) "التفسير" ٣/ ٣٦٥

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾[فاطر:٣٦]. يقول فيها: «ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ عطف على قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾[فاطر:٢٩]. وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا »[١].

وهذا قريب من الفن الخاص الذي ذكره عبد القاهر في العطف ووصفه بدقة المسلك؛ لأن الجملة فيه «لا تعطف على ما يليها ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان»[٢] فلا يجري العطف على التوالي والتعاقب ويمنع من ذلك التحدر أمر من المعنى[٣].

فقوله: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٥]. كل ذلك ممسك ومتولد بعضه من بعض، ثم يستقل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾. ويتصل به ذكر أحوالهم وهم يصطرخون في النار، ثم يعطف هذا الفصل من المعنى على جذر الكلام السابق وهو جملة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ ويعلقها بها فـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾.ليس داخلًا فيما سبقه؛ لأن ما قبله تفصيل للفضل الكبير الذي أعد للسابق في الخيرات من أمة محمد ﷺ وهذا متفرع من قوله: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[فاطر:٣١]. ثم ارتد الكلام إلى ذكر الفئة الأخرى من الذين يتلون الكتاب فيضعها بهذا العطف وضع المعنى المقابل لتلك الصورة.

وهناك آيات يجعلها نهاية للمقطع كله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران:١٨٧]. فالآيات السابقة لها حكت شبهًا لليهود الذين طعنوا بها في نبوة محمد ﷺ ثم امتدت الآيات وتتابعت للإجابة عنه ثم «أتبعه بهذه الآية، وذلك لأنه

(١) "التفسير" ٩/ ٢٤٢

(٢) "دلائل الإعجاز" ص٢٤٤.

(٣) السابق ٢٤٧.

تعالى أوجب عليهم في «التوراة» و«الإنجيل» ... أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دينه وصدق نبوته ورسالته، والمراد منه التعجب من حالهم كأنه قيل: كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صدق نبوته ودينه» [1].

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧]. يجعلها قفلًا لما امتد من آيات في محيط قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٠].

فـ «القوم إنما ذكروا ذلك لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجزة وأن محمدًا إنما يأتي به من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق، ثم إنه تعالى ذكر الجوابات الكثيرة في هذا الكلام، وامتدت تلك البيانات على الترتيب الذي شرحناه وفصلناه إلى هذا الموضع، ثم إنه تعالى بين في هذا المقام أن إتيان محمد ﷺ بهذا القرآن ليس على سبيل الافتراء على الله تعالى، ولكنه وحي نازل عليه من عند الله، ثم إنه تعالى احتج على صحة هذا الكلام بقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[يونس: ٣٨]. وذلك يدل على أنه معجزة نازل عليه من عند الله، وأنه مبرأ عن الافتراء والافتعال، فهذا هو الترتيب الصحيح في نظم هذه الآيات»[2].

فالآية يمتد بيانها ليقرر جميع ما سبقها من حجج تثبت نبوته وتكشف عن بطلان شبهتهم حول صدق معجزته الدالة على اصطفائه نبيًّا من دونهم،وكان بمثابة البراءة عن الافتراء على الله والتأييد لكونه منزلًا عليه من ربه

وفي بعض الآيات لا تجد شيئًا ظاهرًا تتردد إليه الآية أو تتعلق به وإنما يجمع بينها الغرض والمساق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ

(١) "التفسير" ٣/ ٤٥٥

(٢) "التفسير" ٦/ ٢٥٢.

مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]. فهي في الظاهر لا صلة بينها وبين ما قبلها قوله: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩].

ولكن لما كان «المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين، وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى، ذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم؛ لأنه افتخر بأصله ونسبه .... وهؤلاء المشركون عاملوا المسلمين بعين هذه المعاملة ... فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا تنبيهًا على أن هذه الطريقة هي بعينها طريقة إبليس ثم إنه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها، فهذا وجه النظم وهو حسن معتبر»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[الأنعام: ٢٩] فلا يردها «احتجاجًا على صحة القول بالحشر والنشر؛ لأن ذلك الدليل قد تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٩] .. بل المقصود من هذه الآية الردع والزجر عن هذا المذهب والقول»[2]

وينبه الرازي على سلطة الغرض على تنزيل الآيات وترتيبها في مواقعها فتقديم قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]. على ذكر خلق السماوات والأرض في قوله: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]. حيث «قدم ذكر النار في الشجر على ذكر الخلق الأكبر ؛ لأن استبعادهم كان بالصريح واقعًا على الإحياء حيث قالوا: ﴿ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾[يس: ٧٨]. ولم يقولوا: من يجمعها ويؤلفها. والنار في الشجر تناسب الحياة »[3].

---

(١) "التفسير" ٧/ ٤٧١، ٤٧٢.

(٢) "التفسير" ٤/ ٥١٢

(٣) "التفسير" ٩/ ٣٠٩.

أي أن الله سبحانه خلق النار في الشجر والشجر ليس معدنًا لها؛ لأنه خضرة وماء كما خلق الحياة في الرميم وليس الرميم معدنًا لها فإذا كان سبحانه جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا وأنتم تأخذون هذه النار ولا تلتفتون إلى أنه سبحانه أودع لكم بقدرته الشيء في غير ما يتوقع وأوجده فيه فلا تستبعدوا حياة الرميم؛ لأنه قادر على إيجاد الحياة في العظام النخرة .

وتقديم وعد المؤمنين وتوسطه في سياق ذكر المستنكفين قبل بيان وعيدهم وما يفعل بهم؛ لأنه لما كان الغرض من بيان عظم عقابهم شدة حسرتهم زحزح جملة وعد المؤمنين وداخلها في ثنايا الوعيد تصعيدًا للغرض ومبالغة في الإيعاد يقول: «واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه يحشر هؤلاء المستنكفين لم يذكر ما يفعل بهم بل ذكر أولًا ثواب المؤمنين المطيعين . فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ١٧٣]. ثم ذكر آخرًا عقاب المستنكفين المستكبرين فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[النساء: ١٧٣]. وإنما قدم ثواب المؤمنين على عقاب المستنكفين؛ لأنهم إذا رأوا أولًا ثواب المطيعين ثم شاهدوا بعده عقاب أنفسهم كان ذلك أعظم في الحسرة»[1].

وآيات أخرى يعلقها مرة بما سبقها من آيات وأخرى بالغرض الكلي كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢]. ذكر في «اتصال هذه الآية بما قبلها وجوهًا ؛ الأول: أنه تعالى خاطب المؤمنين فيما تقدم فقال: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [المائدة: ٧]. ثم ذكر الآن أنه أخذ الميثاق من بني إسرائيل لكنهم نقضوه وتركوا الوفاء به، فلا تكونوا أيها المؤمنون مثل

(١)"التفسير" ٤/ ٢٧٤.

أولئك اليهود في هذا الخلق الذميم؛ لئلا تصيروا مثلهم فيما نزل بهم من اللعن والذلة والمسكنة .

والثاني: أنه لما ذكر قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[المائدة: ١١]. وقد ذكرنا في بعض الروايات أن هذه الآية نزلت في اليهود، وأنهم أرادوا إيقاع الشر برسول الله ﷺ فلما ذكر الله تعالى ذلك أتبعه بذكر فضائحهم وبيان أنهم كانوا مواظبين على نقض العهود والمواثيق.

والثالث: أن الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكليف وترك التمرد والعصيان، فذكر تعالى أنه كلف من كان قبل المسلمين كما كلفهم؛ ليعلموا أن عادة الله في التكليف والإلزام غير مخصوصة بل هي عادة جارية مع جميع عباده»[1].

فالوجه الأول يجعلها تفصيلًا للميثاق الذي ذكرهم به في آيات متقدمة عنها، وفي الثاني متفرعة عن ما قبلها، أما الثالث فيردها إلى الغرض الكلي من السياق وهو ترغيب الناس في قبول التكاليف والانقياد لها .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[الأنبياء: ١٦] يقول: «في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان: الأول: أنه تعالى لما بين إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلًا منه ومجازاة على ما فعلوا فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب، وإنما سويناهم لفوائد دينية ودنيوية .. والثاني: أن الغرض منه تقرير نبوة محمد ﷺ والرد على منكريه؛ لأنه أظهر المعجزة عليه، فإن كان كاذبًا كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه، وإن كان صادقًا فهو المطلوب، وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن»[2].

---

(١) "التفسير" ٤/ ٣٢٢،٣٢٣ .

(٢) "التفسير" ٨/ ١٢٤،١٢٥ .

وردها إلى الغرض الكلي تفرد به الرازي؛ لأن من سبقوه حملوها على ما قبلها فجاءت وعظًا واحتجاجًا عليهم[1]، فهي تعقيب على معنى التهديد في قوله : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[الأنبياء: ١١] وتفريع عليها .

وبعض الآيات لا يردها إلى الغرض مباشرة، وإنما يقتص الجذر الذي تفرعت عنه الآيات السابقة لها وما أحدث فيها من خصوصيات وبما غذاها من أحوال، ولا يعلق الآية بالآية قبلها إلا بعد تمحيص بيان فيمكن لمعناها ويفرعها عليها.

فقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[البقرة: ٢١١]. ليس الأمر فيها للطلب لكونه ﷺ عُلِّم أحوالهم بإعلام من الله تعالى، وإنما المقصود منها المبالغة في الزجر والتهديد «وبيان هذا الكلام أنه تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. فأمر بالإسلام و نهى عن الكفر، ثم قال: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]. ثم بين ذلك التهديد بقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. ثم ثلث ذلك التهديد بقوله: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾يعني سل هؤلاء الحاضرين أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها، لا جرم استوجبوا العقاب من الله تعالى، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه، والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[الحشر:٢]. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. فهذا بيان وجه النظم»[2].

---

(١) "جامع البيان" ١٧/ ٩ ، و "المحرر" ابن عطية ١/ ١٣٢.

(٢)"التفسير" ٢/ ٣٦٥ .

وتأمل دقة الإمام فلم يعلقها مباشرة بالآية الجذر وإنما رتبها على المعنى الذي تكونه مجموع تلك الآيات وهو التهديد فكانت تصعيدًا له .

وهناك آيات يجعلها مرة متصلة وأخرى غرضًا مستقلًا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]. فلها وجهان: «الأول: أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي وهو السماوات والشمس والقمر والنجوم، أتبعه بذكر الدلائل من بعض الأحوال العالم السفلي ... الثاني: أنه تعالى لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم، أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة؛ ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ والمعاد»[1].

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فـ «يمكن أن يقال: هذه الآية من بقية أحكام الجهاد، ويمكن أن يقال: إنها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد ... وتقريره أن يقال: إنه تعالى لما بين في هذه أمر الهجرة ثم أمر الجهاد، وهما عبادتان بالسفر، بين أيضًا عبادة التفقه من جهة الرسول ﷺ وله تعلق بالسفر، فقال: وما كان المؤمنون لينفروا كافة إلى حضرة الرسول؛ ليتفقهوا في الدين بل ذلك غير واجب وغير جائز، وليس حال كحال الجهاد معه الذي يجب أن يخرج فيه كل من لا عذر له»[2].

ونبه أيضًا إلى أن هناك آيات تقع في البين ولها غرض كما في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ

(١) "التفسير" ٥/ ٢٨٦،٢٨٧ .

(٢) "التفسير" ٦/ ١٧٠،١٧١ .

أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢]. ذكر في «اتصال هذه الآية بما قبلها وجهين، الأول: أن قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كلام وقع في البين، وما قبل هذه الآية متصل بما بعدها ... يعني أنهم في أول الأمر يصدون عنك أشد الصد ثم بعد ذلك يجيئونك ويحلفون بالله كذبًا على أنهم ما أرادوا بذلك الصد إلا الإحسان والتوفيق، وعلى هذا التقدير يكون النظم متصلًا، وتلك الآية وقعت في البين كالكلام الأجنبي ... إلا أن هذا الكلام الأجنبي شرطه أن يكون له من بعض الوجوه تعلق بذلك المقصود ... والآية كذلك لأن أول الآية وآخرها في شرح قبائح المنافقين وفضائحهم وأنواع كيدهم ومكرهم فإن الآية أخبرت بأنه تعالى حكي عنهم في أول الآية أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت مع أنهم أمروا بالكفر به، ويصدون عن الرسول مع أنهم أمروا بطاعته، فذكر بعد هذا ما يدل على شدة الأحوال عليهم بسبب هذه الأعمال السيئة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي فكيف حال تلك الشدة وحال تلك المصيبة، فهذا تقرير هذا القول، وهذا قول الحسن البصري واختيار الواحدي من المتأخرين .

الوجه الثاني: أنه كلام متصل بما قبله وتقريره أنه تعالى لما حكى عنهم في الآية المتقدمة أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويفرون من الرسول عليه الصلاة والسلام أشد الفرار دل ذلك على شدة نفرتهم من الحضور عند الرسول والقرب منه فلما ذكر ذلك، قال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾، يعني إذا كانت نفرتهم من الحضور عند الرسول أوقات السلامة هكذا، فكيف يكون حالهم في شدة الغم والحسرة إذا أتوا بجناية خافوا بسببها منك ثم جاءوك شاءوا أم أبوا يحلفون بالله على سبيل الكذب: إنا ما أردنا بتلك الجناية إلا الخير والمصلحة، والغرض من هذا الكلام بيان أن ما في قلوبهم من النفرة عن الرسول لا غاية له، سواء غابوا أم حضروا، وسواء بعدوا أم قربوا، ثم أنه تعالى أكد هذا المعنى بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [النساء:٦٣]. يعني أنه لكثرته وقوته لا يقدر أحد على معرفته إلا الله، ثم لما عرف الرسول ﷺ شدة بغضهم ونهاية عداوتهم ونفرتهم أعلمه أنه كيف يعاملهم فقال: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ

فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾[النساء:٦٣]. وهذا الكلام على ما قررناه منتظم حسن الاتساق لا حاجة فيه إلى شيء من الحذف والإضمار، ومن طالع كتب التفسير علم أن المتقدمين والمتأخرين كيف اضطربوا فيه، والله أعلم»[1].

وكأني بالرازي يستحسن كونها متصلة بما قبلها ويؤكد على ذلك باتساق النظم وجريانه بعدها على هذا الوجه .

وأيضًا توسط آية الخلع بين الطلقة الأولى والطلقة الثالثة وهي «كالشيء الأجنبي، ونظم الآية: الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره، فإن قيل: فإذا كان النظم الصحيح هو هذا فما السبب في إيقاع آية الخلع فيما بين هاتين الاثنين ؟

قلنا: السبب أن الرجعة والخلع لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة، أما بعدها فلا يبقى شيء من ذلك، فلهذا السبب ذكر الله حكم الرجعة، ثم أتبعه بحكم الخلع، ثم ذكر بعد الكل حكم الطلقة الثالثة؛ لأنها كالخاتمة لجميع الأحكام المعتبرة في هذا الباب والله أعلم»[2].

فتعقيب آية الخلع وهو قوله: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[البقرة: ٢٢٩]. بالفاء بعد المفاداة بالطلاق يوهم بأن الخلع من الطلاق، وعلى هذا احتج بعض الأحناف[3]، فنبه الإمام على سبب اقترانها بالرجعة وتقديمها على حكم الطلقة الثالثة لمناسبتها للأولى في أنهما لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة فأخرت؛ لأنها كالمتممة لأحكام هذا الباب.

---

(١) "التفسير" ٤/ ١٢٢، ١٢٣ .

(٢) "التفسير" ٢/ ٤٤٨ ، وينظر : ٤/ ١٣٩ و ٨/ ٥٩ .

(٣) "أحكام القرآن" ابن العربي ١/ ٢٦٥.

ويكاد يكون ما ذكره حازم في التصرف في مقاصد الكلام وجهاته تلخيصًا وتنظيرًا محكمًا لتحليل الرازي لأنواع التعاليق وجهاتها ونسب المعاني داخل الغرض الواحد . فصنف جهات التصرف في صنفين: «ضرب يقع في الكلام مقصودًا لنفسه . وهو ما كان له بالغرض المقول فيه علقة وله إليه انتساب بوجه يوجب ذكره، والصنف الثاني: ما لم يكن له بالغرض علقة ولكن له علقة ببعض الجهات المتعلقة بالغرض، فيذكر تابعًا لما ذكر ...، وقد يكون له بالغرض علقة إلا أنه لم يذكر إلا من حيث ما هو تابع لغيره ومتعلق به»[1].

والعلاقات السابقة لا تخرج في جميع صورها عن هذين الصنفين فهو إما أن يعلقها بما قبلها أو يردها إلى جهات مختلفة من المعاني المتفرعة عن الغرض الأصل، أو ينعطف بها إلى الجملة الأم وجذر المعنى، وتارة يعلقها بالغرض الكلي المتحصل من مجموع الآيات .

فالبحث في تناسب الآيات يحيط بتنامي المعاني داخل الغرض الواحد وتكاملها وتماسكها، فأجزاء الكلام وعناصره المختلفة تتقاذف في مواقع مختلفة وتتوزع فروعها بنسب محكمة، ومن خلال هذا التقاذف والتوزيع يتشكل للمعنى هيئة متفقة وسمت متشابه.

فالتراث العربي – وإن تباعد سياق النظرية عن التطبيق – استوعب أحوال التماسك وتتبع وجوه انتساب الأجزاء بعضها إلى بعض وخصوصيات اختيار مواقع الأجزاء، وأن ذلك وفق اعتبارات من الأغراض فـ «الجهة الواحدة من الأول يمكن أن يناط بها جهات ثوانٍ كثيرة على أنحاء من الاستدراج والاستطراد وما جرى مجرى ذلك من الانتقالات المتنوعة بتنوع المقاصد»[2].

ووظيفة المفسر والناقد هو إدراك هذه النسب ورد جهات القول وتعليقها بالأصل المتفرعة عنه ثم رد الفروع إلى أصل جامع، وهذا المسلك يصحح وحدة الكلام ويستدل به على وجودها أو انعدامها . وليس الوحدة الساذجة التي تبرز للناقد وغيره سبيلها سبيل المنطق لا تذكر في محاسن الكلام، ولا يقف عندها المفسرون؛ لأنها من علم الظاهر الذي تستوي عنده الأقدام .

---

(١) "منهاج البلغاء" ص ٢١٦.

(٢) "منهاج البلغاء" ص ٢١٧ .

وكان التماسك بين الآيات موضع عناية المتأخرين فلفتوا إلى ما فيه من إحكام وما وراءه من أسرار يجوز بها الكلام البلاغة ليدخل في نطاق المعجز ؛ لأن ذلك التماسك لا يتأتى إليه إلا بغزارة الجملة القرآنية وما طوته تحت بيانها من وشائج تحكم التعاليق بين أجزاء الكلام فتجمع أعناق المعنى قبلها، وتومئ بمعنى تهيئ به للمعنى بعدها . وقد نبه الحرالي إليه في نص كريم يقول: «في كل آية معنى تنتظم به ما قبلها ومعنى تتهيأ به للانتظام بما بعدها، وبذلك كان انتظام الآي داخلًا في معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخلق بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا»[1].

فالجملة القرآنية تؤسس معنى في ذاتها وتطوي معاني في بنائها تنسب بعضها إلى آيات سابقة وبعضها معنى يهيئ لآية لاحقة، وهذا نوع آخر من غزارة البيان القرآني غير الذي نبه عليه الشيخ عبد القاهر، فتلك غزارة من مكونات التراكيب والإصابة في وضعها واستعمال بعضها مع بعض وتلاحقها حتى تكثر في العين[2] . أما الغزارة التي في التناسب فجاءت من تداخل المعاني و تشابكها حتى تصبح كل آية أشبه بقناة تصب فيها المقاصد السابقة ثم تشق مجرى لمعنى تالٍ ويزيدك بيانًا قوله: «فإن الإجمال في القرآن بمنزلة نطق الأكوان والألوان والبيان فيه بمنزلة تخطيط الصور»[3] . فتأتي الآية «إظهارًا لإفصاح ما أفهمه مضمون الخطاب الأول لتنسق الآيات وتجمع الآية ما في تفصيل لاحقتها»[4].

ويفصل ذلك ما ذكره البقاعي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[البقرة: ١٥٤] يقول: «ولما كان الصبر واقعًا على أمور أشقها الجهاد ثم الحج ثم الصوم، وكان بعض الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- قد سألوا عمن مات منهم على قبلة بيت المقدس فبين لهم ما صاروا إليه بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ

(١) "تراث أبي الحسن الحرالي" ص١٨٨.

(٢) "دلائل الإعجاز" ص ٨٨ .

(٣)"تراث أبي الحسن" الحرالي ص ٣٥٧، ٣٥٨ .

(٤) السابق ص٣٠٧ .

﴿ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[البقرة: ١٤٣]. تلو آية الصبر بتبيين حال الشهداء المقتولين في الجهاد من المؤمنين دفعًا لظن أنهم أموات، والتفاتًا إلى ما أشار به إلى صيرورة الأمر إلى الحرب حيث عاب المانعين للمسجد وأخبر بأنه سيحصل لهم خزي في الدنيا بالقتل والأسر وعذاب عظيم في الآخرة بالنار والسخط، وإيماء إلى أنه سيأذن لهم في مقارعة من أمرهم بالصبر على أذاهم من أهل الكتاب حتى يمحقهم السيف ويسكتهم الذل والخوف»[1].

فأجملت ما نبأت به الآيات السابقة من أمر الصدّ عن المسجد وما سيحصل لهم من خزي فهيأت لمعنى تالٍ في معناه وهو الأذن بقتال المشركين بعد أن أمر سابقًا بالصبر على أذاهم.

فالآية لفت في بنائها معاني نشرها ووزعها تعليقها ونسبتها إلى سياقات سابقة ولاحقة. وقد يبتعد سياق التصريح عن الإجمال الذي هيأ له فيكون ذلك جمعًا لأطراف الكلام وثني بعضها على بعض؛ ليحكم تماسك الكلام كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ١٤]. قال فيها: «وفيه أيضًا إيماء إلى أنه كما خلقكم كلكم من طين على اختلافكم في المقادير والألوان والأخلاق وهو غني عنكم، فكذلك خلق المطعومات على اختلاف أشكالها وطعومها ومنافعها وألوانها من طين، وجعلها منافع لكم وهو غني عنها، وسيأتي التصريح بذلك في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٩٩]. المستوفى في مضماره: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾[الأنعام: ١١٨].»[2].

فالمعنى طوي في ثنايا لغة الآية الأولى وأسفر ووضح في سياق آخر فصّل دلالته ورسم تقاسيمه وشكل له هيئة بعد أن كان إلماحة خفية، وهذا معنى ما ذكره الحرالي من أن الإجمال إيحاء والتفصيل تخطيط للصور ونبه البقاعي على حال الآيات التي بين المعنى في صورته

(١) "نظم الدرر" ١/ ٢٧٨ .

(٢)"نظم الدرر" البقاعي ٢/ ٥٩٧ .

مجملًا ثم مفصلًا فقال في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام: ٧٤] «كان في هذه المحاجة التصريح بما لوح إليه أول هذه السورة من إبطال هذا المذهب، وانعطف هذا على ذاك أي انعطاف ! وصار كأنه قيل: ثم الذين كفروا بربهم يعدلون الأصنام والنجوم والنور والظلمة، فنبههم يا رسول الله على ذلك بأنه لا متصرف غيرنا، اذكر لهم أني أنا الذي خلقتهم وخلقت جميع ما يشاهدون من الجواهر والأعراض، فإن تنبهوا فهو حظهم، وإلا فاذكر لهم محاجة خليلنا إبراهيم عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾»[1].

فجملة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ طوت ما بينها وبين الآية الأولى من آيات والتحمت بها؛ لأنها كالدليل القاطع المصدق لما لوح به بيان تلك.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[النحل: ١١٢] [2].

«لما عقب سبحانه ما ضرب سابقًا من الأمثال بقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النحل: ٧٢]. وتلاه بذكر الساعة بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ ﴾[النحل: ٧٧]. إلى آخره، واستمر فيما مضت مناسباته آخذًا بعضه بحجز بعض حتى ختم بالساعة وآمن من الظلم فيها، وبين أن الأعمال هناك هي مناط الجزاء- عطف على ما مضى من الأمثال المفروضة المقدرة المرغبة مثلًا محسوسًا موجودًا، مبينًا أن الأعمال في هذه الدار أيضًا مناط الجزاء، مرهبًا من المعاجلة فيها بسوط من العذاب، فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ ﴾»[3].

---

(١) "نظم الدرر" البقاعي ٢/ ٦٥٧ .

(٢) "نظم الدرر" البقاعي ٢/ ٦٥٧.

(٣) السابق ٤/ ٣١٦.

وهذا الارتداد ليس بين المعاني فحسب وإنما ينظر فيه إلى التقاء أطراف الأساليب وثني أسلوب على نظيره في السورة . ونبه الإمام البقاعي على خصوصية كل مثل فالثاني داخله شوب من معاني الآيات السابقة له حيث جرى فيها ذكر الأعمال وأنها مناط الجزاء فدل بذلك على تمكنها في موقعها بما لا يحسن معه انتزاعها ووضع نظيرتها مكانها.

وموقع الآية من الآية وحسن اقترانها وإيلائها لما قبلها لم يحل دون ملاحظة عناصر شبيهة بها تناظرها وتنتظم معها في قرن . كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾[النساء: ١٢٧]. فنبه على مجيئها عقيب ذكر الإسلام في قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[النساء: ١٢٣]، مع قوله فيما قبل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[النساء: ١٢٥]. قال فيها: «وما أنسب ذكر هذا الحكم الذي كثرت فيه المراجعة على وجه يؤذن بعدم إذعان بعض النفوس له عقب آية الإسلام الذي معناه الانقياد والخضوع، والإحسان الذي صار في العرف أكثر استعماله للإعطاء والتآلف والعطف لا سيما للضعيف وذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي تقدم أنه أتم ما ابتلاه الله تعالى به من الكلمات ووفى بها من غير مراجعة ولا تلعثم، وأنه كان حنيفًا ميالًا مع الدليل؛ تعنيفًا لمن قام عليه دليل العقل وأتاه صريح النقل وهو يراجع ! وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[النساء: ١٢٣]. مع قوله فيما قبل: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[النساء: ٩]. لاحت لك أيضًا مناسبة بديعة»[1].

(١) "نظم الدرر" البقاعي ٢/ ٣٢٨.

وهذا المنهج في تتبع الكلام واستدعاء ما تشابه منه على تباعد مطارح المعاني وتلفعها في ثنايا اللغة وسلها من ذلك الخفاء هو المنهج الذي يحكم تماسك الكلام ويسدي لحمته ويسد ما في النظم من ثغرات توقع البعض في وهم فقدان الوحدة .

وتميز البقاعي في دراسته للتعاليق بين الآيات بالتنبيه على ما يفيده الترتيب من معانٍ إنتاجية يمكن لتشكيلها معاني سابقة، والمعاني الإنتاجية ليست التنبيهات التي ذكرها الرازي وغيره من علماء المناسبات وإنما هي وصف في عمل الإبانة، وإنشاء الكلام والدواعي التي مكنت لمجيء الآية عقيب الآية وكيف تخلقت من سابقتها وعول في ذلك على أمرين: أحدهما: ملاحظة المعنى وما يستلزمه من معان تتفرع عنه وتسدي بيانه، كما في قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ بعد قوله: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يقول: «ولما كانت أمانيهم أنهم لا يجازون بأعمالهم الخبيثة أنتج ذلك لا محالة قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [1] .

وكذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[النحل: ٣٦]. انسلت من اختيار الجمع لكلمة رسول في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[النحل: ٣٥]. فـ «لما كان جمع الرسل مفهمًا لتوزيعهم على الأمم، كان موضع توقع التصريح بذلك، فقال : دافعًا لكرب هذا الاستشراف، نافيًا لطروق احتمال، دالًّا على أن هذا القول السابق منصب إنكاره بالذات إلى اعتراضهم على الإرسال ومسليًا لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وحاثًّا لهم على الاعتبار، عطفًا على ما تقديره - : فلقد بعثناك في أمتك هذه لأن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدينا، ومنهم حقت عليه الضلالة» [2].

(١) "نظم الدرر" ص ٣٢٣.

(٢) "نظم الدرر" ٢/ ٣٢٣ .

أو ينتج المعنى من مجموع آيات كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤]. ذكر أنه «لما أنتجت هذه الآيات كلها أنهم معاندون لربهم، وأنهم يريدون بهذه السؤالات أن يضللوا سبيله ويحتقروا مكانته ويهدوا منزلته، علم قطعًا أنه يعمر بهم دار الشقاء»[1].

وكذلك موقع قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠] بعد أن «وضح بالحجاج معهم الحق، واستبان بمحو شبههم كلها من وجوه كثيرة الرشد، وأوضح فساد طرقهم، وأبلغ في وعيدهم، أنتج ذلك صدق الرسول وحقيقة ما يقول»[2].

وثانيها: ملاحظة ما يتوقعه المخاطب ويستشرفه من لوازم تثيرها تلك المعاني فيأتي ما بعدها إشباعًا لهذا التوقع فيتحدر الكلام إزالة لذلك التشوف كما في تمكن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢]. في سياق ما سبقها من آيات فقد «كان آخر هذه القصص في الحقيقة إبطال كل ما خالف الإسلام الذي هو معنى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]. وما بعد ذلك إنما جره ختم الآية بدعوى أن المخالفين من الخاسرين، وختم ذلك بأن من مات على الكفر لا يقبل إنفاقه للإنقاذ مما يلحقه من الشدائد لا بدفع لقاهر ولا بتقوية لناصر، فتشوفت النفس إلى الوقت الذي يفيد فيه الإنفاق وأي وجوهه أنفع، فأرشد إلى ذلك وإلى أن الأحب منه أجدر بالقبول»[3].

وأيضا مجيء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. في سياق ذكر ما أخذه الله

(١) "نظم الدرر" ٤/ ٢٦٧.

(٢) "نظم الدرر" البقاعي ٥/ ٣١٦.

(٣) "نظم الدرر" ٢/ ١٢٥.

على بني إسرائيل من ميثاق، قال:«لما بين لهم أنهم نقضوا العهود فأحاطت بهم الخطايا فاستحقوا الخلود في النار توقع السائل الإخبار عن سبب وقوعهم في ذلك هل هو جهل أو عناد فبشع سبحانه ذلك عليهم بحرف التوقع فقال: ﴿ وَلَقَدْ ﴾ باللام التي هي توكيد لمضمون الكلام و«قد» هي لوقوع مرتقب مما كان خبرًا أو مما سيكون علمًا»[1].

وفي جميع هذه النصوص نجد الإمام البقاعي يستخدم كلمة «أنتج» ويجعل ذلك الموقع ومجيء الآية ردف ما قبلها علمًا قطعيًّا، والرازي لفت إلى بعض من هذا في تحليله لبعض الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الحجرات: ١٠] جعلها «تتميمًا للإرشاد وذلك لأنه لما قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾كان لظان أن يظن أو متوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال، وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الإصلاح فقال: ﴿ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ وإن لم تكن الفتنة عامة وإن لم يكن الأمر عظيمًا كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين»[2].

ولكنه لم يتتبع الفكرة في كل الآيات كما فعل البقاعي حيث جعلها منهجًا في تحليل آيات القرآن فدل بها على تناسج معانيها وتناسبها وقوة إحكامها وأخذ بعضها بحجز بعض .

(١) " نظم الدرر " ١/ ١٨٤

(٢) "التفسير الكبير" ١٠/ ١٠٦ ، وينظر أيضًا: ١٠/ ٤٢ ، و٨/ ٢٦٤.